الدكتور أحمد وارث

عنوان المقال: الهوية الدينامية المنفتحة و أعداؤها . أو جدل الهوية الدينامية المنفتحة و الهوية المنغلقة

ملخص المقال:

يتميز الإنسان عن غيره من الكائنات الطبيعية (الحيوان) من خلال قدرته على إحداث التغيير في الطبيعة و في ذاته. لذا يتلخص تاريخ الإنسان في سلسلة من التفكير و الفعل: تفكير حول الواقع لتجاوز تناقضاته و سلبياته، و عمل على إحداث التغيير الإيجابي المحقق للتجاوز و للتعالي، الذي يمكن أن يرضيه لفترة محدودة، قبل أن يبحث من جديد، هو أو غيره، عن كيفية لتجاوزه من أجل واقع أخر يبدو أكثر جمالا.

ولأن الإنسان لا يمكن أن يفعل في تاريخه شيئا لذاته إلا كان مع الآخرين و بالآخرين و من أجل الآخرين. لذا فإن هذا "الآخر" غير منفصل عنه، بل هو جزء منه، يشترك معه في ذاته الجماعية، أو في كيان يجمع بين ذواتهم ، أو "ذات بينهم"، يسمى " النحن ". هذه الذات هي التي تشكل امتداده و حصنه الذي يشعره بالانتماء إلى ذات أكبر هي " الأمة"، و التي يمكن أن تقوم على أساس صلة الرحم، أو العرق، فتسمى القبيلة، إذا نظر إليها في أضيق أبعادها، و تسمى القومية، إذا اتسعت أكثر لجملة القبائل المشتركة معها في الانتماء إلى العرق. و قد تقوم على اللغة أو الدين، أو الانتماء إلى الذات الثقافية والحضارية، إذا اتسعت أكثر لتشمل كل المشتركين في الثقافة و الحضارة و التاريخ، رغم اختلاف أعراقهم الذين تعايشوا و تزاوجوا و تداخلوا فانصهروا فتشكلت الأمة منهم جميعا عبر سلسلة من التجارب و الآلام و الآمال وعبر المكتسبات و التراكمات المعرفية.

وبين اختلاف التجارب و تغير أحوال الجماعة و بين الثبات النسبي للسمات المميزة لها و المستخلصة من تلك التجارب، تصنع الجماعة هويتها.

لذا فإن الهوية تسير في دينامية و حركة و ليست أقنوما جامدا ثابتا.

الكلمات المفتاحية : التاريخ ، الهوية ، التغيير ، النحن، التراكم ، المكتسبات، الحركية .

dynamic Identity an its enemies

Abstract.

Human being is differentiated from other animal's being by his aptitude to make change in his kind of life , this kind of action is called Historical act .

The human's history is a serie of thinking and action. the human always seeks to find ideas and work on to make his world better , until he finds another idea which seems more completion , this dynamism make the human as a result of what he has been in the past and what he will be in the futur , that's why the concept of « the other « sounds logical through all cumulative ides and inherited acquisitions during generations .

And from this union with others will born the nation , where the individual self is a part of a group sharing same hopes and carring about same common concerns , and creat the concept of 'we' , where everyone feels responsable about himself and about the others , this is how the cultur definate the identity .

Keywords : history , identity ,change, accumulation , acquisition, dynamic.

المقال :

منذ أن وجد الإنسان و وعى ذاته، دأب على مواجهة العالم، أو الوجود، على ما هو عليه في راهنه ومعيشه، فوقف أمام مظاهره و تجلياته في حالة من الدهشة مما يعتريه من النقائص التي تبعث في نفسه الضيق والقلق. تأمله مليا و أمعن التفكير في تنظيمه وإلغاء تناقضاته ونقائصه.

و مهما قلنا عن اهتمامات الإنسان الأول أنها كانت بسيطة ومحصورة في تلبية الحاجات البيولوجية و ضمان البقاء، فإن النقص أو السلب كان حاضرا على الدوام ملازما لحياة الإنسان، بسبب تحولات الطبيعة ذاتها. تجلى هذا في نقص الغذاء، أو نقص الأمن، أو الحيرة و العجز أمام مظاهر الطبيعة...إلخ .

و لعل عملية التأمل في هذا الراهن بنقائصه هي التي مثلت جوهر الفلسفة، مثلما عرفها سقراط. أما العمل على تجاوز هذه النقائص و تحقيق الصورة المثلى الخالية من النقائص و من التناقضات، على أرض الواقع، فهو ذاته الفعل التاريخي المغيِّر لحياة الفرد، و للحياة المشتركة للمجتمع أو للجماعة البشرية التي ينتمي إليها، سواء كانت محدودة كالأسرة، والقبيلة، والمدينة، أو شاملة كالأمة(1)، أو الإنسانية.

هكذا يمكننا القول: إن التاريخ الإنساني ليس شيئا آخر سوى هذه السلسلة المتكونة من التفكير و العمل: تفكير في سلبيات واقع راهن و في كيفية تجاوزها، و عمل على تحقيق الصورة الجديدة، في أرض الواقع، لعالم نتصوره لحظة العمل على تحقيقه، مجسدا للملئ، أو للكمال، وخاليا من نقائص العالم الراهن. لكننا لا نلبث أن نتجاوزه، بدوره، إلى صورة جديدة للعالم تبدو لنا، حينها، أكثر اتساقا و كمالا.

وبمقتضى هذا التصور فإن الإنسان، فردا كان أو جماعة، يعيش على الدوام حالة من التغير والتطور المستمرين، داخليا و خارجيا، تشبه بصورة كبيرة نهر هيراقليطس(Héraclite) (2) الذي ليس من الممكن النزول في نفس مياهه مرتين، لأنها تكون قد تغيرت وحلت محلها مياه جديدة، إذا ما فكرنا في النزول فيه مرة أخرى.(3)

و هكذا فإن حالة الإنسان، في لحظة ما، ليست هي ذاتها حالته في اللحظات التي تليها، لأنه بالضرورة يكون قد تغير في حالته النفسية و في مشاعره، و ربما قد استفاد شيئا من الخبرة والتجربة و المعرفة في تلك اللحظة. مما يجعل تعامله مع نفس الصعوبات، لو طرحت عليه ثانية، تعاملا مختلفا، فيه جدة و إبداع. فكأنه صار بالنسبة لحالته الأولى إنسانا آخر، دون أن يكون قد فَقَدَ إِنِّيَتَهُ، إذ ما يزال هو هو. وهكذا تتوالى تغيرات الإنسان وتدرجه البطيء، و المستمر نحو الكمال، عبر دينامية جدل المتغير و الثابت. ثبات الذات رغم تغير أحوالها بتطور معارفها و تجاربها. (4)

وإذ يسعى الإنسان إلى إحلال الكمال في واقعه من خلال سعيه إلى تجاوز سلبياته و مساوئه، فإنه بصورة لا شعورية يسكن صورة هذا الكمال في ذاته، فترتقي ذاته بدورها.

وهذا فحوى كلام كارل ماركس عن الإنسان:" حين يؤنسن الطبيعة من خلال العمل، فإنه يزداد هو ذاته إنسانية".(5)

غني عن التوضيح إذن أن تاريخ الإنسان هو، من جهة، مسار تعامله مع الطبيعة، من خلال علاقة العمل، ومن جهة أخرى مسار تعامله مع أقرانه من بني البشر، من خلال مختلف العلاقات الاجتماعية والاقتصادية و السياسية ، من أجل ضمان بقائه و بقائهم بأوفر الخيرات، و أقل الجهود و التضحيات.

ثم إن التاريخ ليس فعلا و صناعة لمسار الأحداث فقط، ولكنه، من جهة أخرى هو رواية لهذا المسار، يتناقله الأحفاد لمعرفة ذواتهم، من جهة امتداداتهم الماضية، و ليعرفوا موقعهم و الكيفية التي آلوا إليه. لهذا توجب عليهم معرفة الأحداث و صناعها.

إن التاريخ إذن يحمل وجهين: وجه عملي حدثي (يتعلق بما أحدثه الإنسان من التغيير) هو التاريخ، ووجه نظري معرفي، هو ما نعرفه عن التاريخ.

–من صناعة الحدث إلى تناقله خبرا و خبرة:

تميز الإنسان عن غيره من الكائنات بتوريث أبنائه من بعده، خلاصة تجاربه في مواجهة أصناف الصعاب والمخاطر لضمان بقائه، في مواجهة الحيوانات المفترسة، و في ضمان قوته من الصيد و في اتقاء غضب الطبيعة...إلخ . كما أورثهم كذلك مكتسباته المعرفية في الزراعة وصناعة الأدوات، وتوفير المياه، وبناء المساكن...إلخ، ليستفيدوا منها، وليضيفوا إليها تجاربهم الجديدة، فيحدث لكل جيل منهم مزيد من التراكم المعرفي، يوفر لهم أعظم الخيرات، و يتحقق لهم بفضل ذلك، التطور والتقدم.

يتبين لنا من هذا أن أية وضعية تاريخية يجد الإنسان فيها ذاته، مهما كانت درجة تطورها أو تخلفها، فهي نتيجة تراكم لمعارف و أعمال أجيال مضت. أما الحياة الطبيعية الخالصة مثلما تحدث عنها فلاسفة العقد الاجتماعي، فحتى لو سلمنا بواقعية وجودها، فإنها لم تكن ميسورة إلا للأجيال الأولى، التي لم تكن بعد قد امتلكت وعيا بذاتها.

" إذا نظرنا إليه كما خرج من يدي الطبيعة، رأيناه حيوانا، أَقَلَّ من بعض الحيوانات قوة، وأقل من بعضها الآخر خِفَّةً. ولكن إذا أخذنا بجميع ما فيه، وجدناه أفضل و أنفع تكوينا منها كلها... مع ما هناك من فرق، وهو أن كل فصيلة لها غريزتها الفطرية الخاصة بها، وأن الإنسان الذي لا غريزة له خاصة به، يقتبس جميع الغرائز."([6])

يكمن سر الإنسان في هذه القدرة على التعلم و الإضافة إلى واقعه و إلى ذاته.

من الطبيعة إلى المجتمع:

يمكن تمييز الحياة الطبيعية عن الحياة الاجتماعية أو التاريخية وفق ما قاله مالك بن نبي في كتابه " ميلاد مجتمع": "إن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع. هدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم الحضارة".([7])

و على نقيض الحيوان، فإن الإنسان ليس كائنا يكرر ذاته، من جيل إلى جيل آخر. إنما يتجاوز الحال التي أعطيت له أول مرة، وفي كل مرة، مع كل جيل. وترتبط هذه الخاصية بخاصية أخرى تتمثل في أنه "يستطيع الاحتفاظ بالماضي في الحاضر، من خلال توارث الناس لنتائج أعمالهم المشتركة، والإضافة إليها. وبالتالي فهم يتطورون بفعل تسلسل هذا التوارث " (8)، على حد تعبير المفكر الفرنسي ريمون آرون(Raymond Aron) (1983.1905).

أما حين نتحدث عن الحيوان فلسنا أمام شيء آخر سوى الغريزة، إذ أن التاريخ بالنسبة للنوع الحيواني يتلخص في عمليات محددة هي: الولادة والتكاثر والفناء... " فأفراد هذا النوع لا يضيفون إلى طبيعتهم أو تاريخهم شيئا". (9)

وهكذا يتجلى الإنسان ليس كماهية و إنما كصيرورة. ليس كشيء منجز سلفا، و إنما ككائن يسعى إلى إكمال ذاته بذاته. وهو يفعل ذلك من خلال العمل على منح عالمه صفة الكمال قدر الطاقة الإنسانية النسبية والموصوفة **بالتدرج و التطور**.

إن خاصية احتضان أعمال ومنجزات الأسلاف، والاحتفاظ بها بصورة واعية، والإضافة إليها، ثم توريثها للأجيال اللاحقة، هي ما يميِّز الإنسان عن الحيوان. وهي التي تتيح له إقامة تواصل بين مختلف أبعاد الزمان : الماضي و الحاضر و المستقبل. فالاستمرارية، و التراكمية، والتطور من الصفات الأساسية للحضارة و للتاريخ الإنسانيين.

وهكذا فإن كل جيل من أجيال بني الإنسان مختلف بالضرورة، فيما تراكم لديه، و فيما اكتسب من المعارف، عن الجيل الذي سبقه، وعن الجيل الذي يليه. بل إن نفس الجيل قد تتغير أنماط حياته، من فترة إلى أخرى، حتى ليبدو كأنه مغاير لما كان عليه، تمام المغايرة.

فما كان يبدو لجيل صورة مطلقة ومثالية، صار بالنسبة للأجيال التي تلته واقعا معيشا، أمسكت به الأيدي، بل وطأته الأقدام أيضا، ففقد بريق الحلم وشوقه، وصارت الرغبة في تجاوزه مطلوبة وملحة. وصار بالنسبة للأجيال، التي تليها، مثيرا للشفقة و السخرية.

-اختلاف الزمن الإنساني عن الزمن الطبيعي بسبب توارث المكتسبات المعرفية:

ولهذا السبب بالضبط يختلف الزمن الإنساني المتجدد و الخلاق عن الزمن الطبيعي الرتيب والآلي .

إن الإنسان إذن في صيرورة عبر الزمن. وزمن الصيرورة الإنسانية ليست له علاقة بزمن الطبيعة. ففي مقابل التكرار الآلي المحض للزمن الطبيعي، نجد أن الزمن الإنساني مبدع و خلاق.

وفي هذا الشأن يقول الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار (Bachelard .Gaston) 1884-1962 :
"إننا ندرك "الآن" حدسا، لكننا نسعى إلى فهم مسار الزمن بوصفه صيرورة، فهما عقليا ... إن وعي الزمن هو دائما بالنسبة للإنسان وعي باستخدام الآنات (جمع آن)، (Instant) فهو وعي فعال، على الدوام، وليس سلبيا أبدا . و عموما فإن وعي ديمومتنا هو وعي لتطور في ذاتيتنا الحميمة. سواء كان هذا التطور فعليا أو مفتعلا، أو مرغوبا." (10)

وفي كل مرحلة من مراحل تطوره يمارس الإنسان عملية تجاوز لوضعه و لذاته . إنه ينكر، في كل مرة، صورة من ذاته ويتجاوزها إلى صورة جديدة، طيلة مراحل ديمومته . إنه يعيش الزمان ديالكتيكيا.

أما بول فاليري (Valéry .Paul) (1871-1945) فيرى أن ما يمنح الزمن قيمته و ثراءه هو الجانب الإنساني الحي، بالضبط. " ولو جردنا التاريخ من عنصر الزمن الحي لوجدنا أن مادته نفسها، أعني التاريخ الخالص المؤلف من الوقائع فحسب ومن وقائع لا جدال فيها، غير ذات معنى ... إنما يأتيها المعنى من الزمن الإنساني، الذي يتصل بها فيعطيها مكانها من ماضي الإنسان ."[1]

خصائص الفعل التاريخـــي :

لو جئنا الآن لنوجز خصائص الفعل التاريخي، حتى يسهل على أي كانَ تبيُّنه، من غيره من الأفعال، فإننا نجدها تتحدد في ما يلي:

1 - **الوعي:** و لعله أول خصائص الفعل التاريخي أهمية. أي أن يكون صانعُ الفعل التاريخي واعيا تمام الوعي بذاته، و بما هو مقدم على فعله، مدركا القصد منه، ومتوقعا نتائجه.

وبهذا الشرط تُقْصَى من هذه التسمية تلك الأفعال التي لم يمتلك عنها القائمون بها وعيا كاملا، لوقوعهم تحت أي تأثير، كان حائلا دون وعيهم الكامل بما قاموا به من الأفعال.(كالجنون، أو السكر، التخدير...إلخ).

ولذلك نستطيع القول: إن ملكة الوعي هي الخاصية التي تميِّز الإنسان تمييزا قطعيا عن الحيوان، و أن لحظة الوعي هي لحظة مفصلية في تاريخ الإنسان و حضارته.

2 – **القصدية** :(Intentionnalité) وهي إرادة الفعل، مع معرفة الغاية والقصد من الفعل، قبل القيام به. و بفضلها يتميَّز فعل الإنسان التاريخي عن أنماط السلوك الغريزي، أو المنعكسة شرطيا، غير القصدية، التي يقوم بها بطريقة آلية، وغير واعية. مما يعني أن الأفعال التي تحصل دون قصد من أصحابها لا يمكن عدها تاريخية.

3 – الحرية: و تعني امتلاك القدرة على الفعل و تحديد نوعية الفعل، أو الامتناع تماما عن الفعل. و إذا كان الوعي ما تتميَّز به الكائنات البشرية، مثلما سبق ذكره فإنهليس للوعي قيمة دون الحرية، لأنه لن يكون، دونها، إلا شكلا من أشكال وجود الجمادات.

ومن مظاهر الحرية أن يكون الإنسان حرا و مخيَّرا في القيام بفعله، أو الامتناع عن الفعل، غير خاضع لأي إكراه أو إجبار. لأنه حينئذ لن يكون هو الفاعل، بل مجرد أداة للفعل، في يد من مارس عليه الإكراه. فتوفر عنصر الحرية هو الذي تَلْزَمُ عنه المسؤولية و تترتب، عنه المحاسبة، في النهاية .

فحين يمتلك الإنسان وعيا بوضع معين، أو فعل، و يمتلك المقدرة العقلية على الحكم بسلامته أو بفساده، بجماله أو بقبحه، و يمتلك في ذاته توقا، أو قصدا مثاليا، أن يحيا حياة يتطابق فيها الواقع بالمثال، من جهة امتلاكه صورة مثالية عن الحق والجميل و الخير، يجد في نفسه حاجة ضرورية واستعدادا إلى القيام بفعل ما، غير متعيِّن في البداية، ثم مُلِحًّا في النهاية، من أجل مطابقة الواقع بالمثال.

ومن أجل أن يشعر الإنسان بحريته ، من الضروري أن تتاح أمامه مجموعة من الخيارات والإمكانات، فيكون عليه أن يقرر، بحريته، وإرادته، و قصده ، ترجيح خيار واحد منها ، على حساب الخيارات أو الإمكانات الأخرى . و مهما كانت أنواع الحصر و التضييق عليه لتقليل الخيارات المتاحة أمامه، فإنه سوف يظل أمام الإنسان اختياران اثنان، على الأقل: إما الفعل، أو الامتناع عن الفعل. وهو يملك الحرية في أن يفعل، أو أن يمتنع عن الفعل.

4 – جماعية الأثر: وتعني شمول أثر الفعل التاريخي لذوات أخرى، غير ذات صانعه، مما يجعل هذه الآثار مشتركة بين أفراد الجماعة البشرية المحيطة به . المحدودة كالأسرة، أو القبيلة، أو الواسعة كالأمة. وقد تتسع إلى الإنسانية قاطبة.

وهو ما يفهم معناه مما ورد في القرآن الكريم:

" من قتل نفسا بغير نفس، أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها، فكأنما أحيا الناس جميعا. "

وهو الحكمة المستنتجة من الحديث الشريف عن قصة أولئك الذين ركبوا سفينة فاقتسموها. لكن بعضهم لأسباب خاصة به أراد ثقبها. فلو ترك يفعل (بدعوى أنه حر و أن ما بفعله شأن خاص) لغرق و غرقوا. لكنهم لو منعوه من ذلك (لأن نتائج فعله لا تصيبه بمفرده، بل تشملهم جميعا) لنجا و نجوا.

و هذا معنى ما قاله أيضا الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر: " إن الوجود المجازي من صنع الطبيعة أو الله، و إننا بأنفسنا نصنع الوجود الحقيقي. الوجود الحقيقي هو ماهيتي و هويتي الإنسانية و شخصيتي الثقافية." بمعنى أن الوجود الحقيقي هو ما يصنعه الإنسان بالاشتراك مع غيره.

صحيح أن كل فرد، في اللحظة التي يَهُمُّ فيها باتخاذ قرار ما، يبدو وحيدا، بمعنى أن لا أحد يقرر نيابة عنه، أو يلزمه عنوة، غير أنه، حتى وهو وحيد، يظل ملتزما مع الآخرين عبر علاقات متعددة، يتأثر بهم ويؤثر فيهم، من خلالها. وكأن الآخرين، بواسطة هذه العلاقات يضعون له الأطر المحددة لأنماط سلوكه. فالآخر محدد لمجالات الاختيار أمام الذات، من خلال توسيعه، أو تضييقه لمجال حركتها.

ومن جهة أخرى فإن الفرد مؤثر في مصير الآخرين (الجماعة التي ينتمي إليها)، من خلال فعله أو امتناعه عن الفعل.

تلك كانت صفات الفعل التاريخي من الجهة المتعلقة بوعي الذات الفردية، لكن للفعل التاريخي خصائص مرتبطة بالذات الجماعية .

خصائص الفعل التاريخي المرتبطة بالذات الجماعية :

أ – التراكمية:

لعل أهم ميزة لحياة الإنسان التاريخية و الحضارية هي: التراكمية، لأنه بفضلها ضمَّ الإنسان أعمال ومنجزات الأفراد، والأجيال المتعاقبة، ومكتسباتهم المعرفية، بعضها إلى بعض، ليوَرِّثها للأجيال اللاحقة، فيضيف إنسانُ كلِ جيلٍ، إلى تجاربه تجاربَ سابقيه.

لكن، هذه الأجيال لا تحتفظ بكل ما صنعه أسلافها السابقون، فتثقل كاهلها به . بل هي تمتلك المعيار أو الميزان الذي تقدِّر به ، والحرية ، في أن لا تحتفظ إلا بما يزيد في رُقيِّها و يُوَفِّر لها عيشة أرغد و أهنأ ممن سبقها.

ب–الانتقائية:

إن أي جيل من أجيال البشر، في المرحلة المسماة بالتاريخية، ليس متلقيا سلبيا، يتلقى من الأجيال الماضية كل تجاربهم فيحتفظ بها كما هي، ويثقل كاهله بحمل ما ينفع و ما لا ينفع، بل هو يمارس عملية انتقاء لما يلائمه من تجاربهم، ولا يحتفظ إلا بما يزيد في رقيه، و يوفِّر له عيشة أرغد و أهنأ ممن سبقه. كما أنه بدوره يسهم برصيده من التجارب الجديدة في تحسين عمل و أداء الأجيال اللاحقة، حين ينقل إليهم تجاربه إلى جانب ما انتقاه واحتفظ به من تجارب الأجيال الماضية.

الأدوات الأولى للتأريخ و التعبير عن الذات:

حتى قبل ظهور الكتابة، التي تناقل الناس بفضلها تجاربهم من جيل إلى جيل، أدت الروايات الأسطورية هذه المهمة مشافهة، مثلما أدت الرسوم على جدران الكهوف، الغاية ذاتها تصويرا، كما هو موجود من الرسوم في الطاسيلي مثلا، وفي عدد من الكهوف و المغارات التي كان الإنسان القديم يأوي إليها.

تبين لنا القراءة الصحيحة للأساطير أنها، في حقيقة الأمر، كانت تقدم لنا تعريفا و وصفا للإنسان، أكثر من تقديمها لأي موضوع آخر، حتى وإن كانت في الظاهر روايات عن الآلهة التي مثلت أدوار البطولة فيها.

لذا يجدر بنا هنا أن نشير إلى أن سيزيف الذي تذكره الأسطورة اليونانية لا يختلف عن الإنسان الذي نعرفه عبر الأزمنة، وننتمي إليه، ذاك الذي يحمل أعباءه الفردية وأعباء جماعته فيسعى للارتقاء بها نحو أعلى قمم السؤدد و الرقي الحضاري. لكنه يكتشف، في مرات كثيرة أن الطريق محفوف بالعوائق، و الحفر، و المطبات، فيتعثر خطوه و يرتبك سيره عما كان عليه من السلاسة و الاستقامة. ولأسباب كثيرة، ترتبط بعجز الإنسان، عن مواجهة التحديات المتأتية من صروف الطبيعة، من براكين و فيضانات أو جفاف إلخ، أو التحديات المتأتية من الإنسان الآخر، في شكل غزوات، قد يجد الإنسان أن أحوال جماعته عادت القهقرى فهوت إلى الحضيض.

لكنه رغم ما أصاب أمته، و الأصح القول: بسبب ذلك، فإنه لا يتخلى عنها أو يستقيل، بل يعمل قصارى جهده، ليعيد إصلاح ما أُفسِد فيها. وإن قلبه ليمتلئ فرحا وسعادة كلما شعر و لو للحظة أن جهده لم يذهب سدى، وأن مسعاه كُلِل بقليل من النجاح، و ساهم في دفع أمته خطوة إلى الأمام، باتجاه الهدف المرسوم.

كما لا تختلف رغبة غلغامش، الذي تذكره الملحمة السومرية و البابلية في ما بين النهرين، منذ ألفي سنة قبل الميلاد، (أي قبل أربعة آلاف سنة منا) عن رغبة أي إنسان معاصر في نيل الخلود من خلال عمله الفكري أو اليدوي، ما دام الخلود بالجسد ممتنع بسبب الطبيعة البشرية الفانية.

يمكننا القول إذن: إن كل إنسان سوي مسكون بحب الخلود، و يهدف إلى أن يترك في أمته بصمة بعد مروره بالحياة.

و هو بالضبط ما قصده ليبنيتز حين ميز بين الهوية الطبيعية و الواقعية (المشتركة بيننا وبين البهائم) و بين الهوية الأخلاقية القائمة على "الوعي الذاتي" أو شعور الأنا الذي يجعلنا قادرين على الشعور بالعقاب و الثواب و الذي يؤسس خلود النفس البشرية.[2]

تداخل المعرفة والفعل في التاريخ:

نجد إذن عند الإنسان رغبة في الفعل من أجل التغيير إلى ما يحسبه الأحسن، مقترنة ومشروطة بمعرفة ما كان، لفهم ما هو كائن. هذا التداخل بين معرفة ما كان لتفسير و فهم ما هو كائن، من أجل الفعل فيه، تثبيتا أو تغييرا، نجده صورة مطابقة تماما للتداخل في لفظة "التاريخ"

[2] Leibniz.Nouveaux Essais, 2,ch.27,9

(Histoire , History)التي تحمل في جل اللغات معنى الفعل التاريخي، و معنى المعرفة التاريخية في آن معا.

ثم إن الحاضر، أو الراهن، ليس شيئا آخر سوى المحصلة أو النتيجة التي ترتبت بصورة حتمية عن مقدمات فعلت فعلها في الماضي البعيد أو القريب. و إذا ما أراد أحدهم أن يطرح السؤال "اللماذائي؟" عن الحاضر، على طريقة شكيب أرسلان: "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟" فليس أمامه إلا أن يعيد تتبع مسار تفاعل تلك المقدمات من الماضي إلى الحاضر. فلا يمكن الفعل في التاريخ و التدخل في مجرياته دون الإحاطة معرفيا بمقدماته و حيثياته، و دون فهم آلية و قوانين سيره.

هذا بالنسبة للمسار المستقيم و المثالي لتطور الأمم. مثلما تصوره هيغل[3]، أما في الواقع فإن مسارات الأمم مليئة بالانحرافات و الانتكاسات، تماما مثلما ليس صحيحا أن كل إنسان يسعى بالضرورة للخير العام، أو أنه يتحرك بتوجيه من العقل، و يهدف إلى تحقيق صورة مثالية، أو أن كل إنسان يدرك قيمة البصمة التي يتركها بعد مروره إلى العالم الآخر. بل قد يرى الإنسان القبح و الباطل، ولكنه يعمل على إيهام الناس بجماله و بعدله. وبتأثير من المصلحة أو الشهوة، قد يرى الحق لكنه ينفر منه و يصُدّ الناس عنه، معاكسا قول أفلاطون سابقا من أن الإنسان العاقل لا يمارس الشر و هو يعلم أنه شر.

وقد يحصل التعارض بين البعدين: الموضوعي و الذاتي. البعد المعرفي الموضوعي المرتبط بتقديم حقيقة ما جرى، أي كما جرى فعلا مثلما رأى ليوبولد فون رانكه، وبين البعد المرتبط بحياة الجماعة و مصيرها.

الوحدة في التغيُّر، الأنا والآخر:

إن ما يصدق على الفرد من التغيُّر يصدق على الجيل في المجتمع. أنا اليوم لست أنا الأمس، وسوف أكون بالتأكيد مختلفا في الغد. لكني رغم ذلك "أنا" واحد، وإنِّيتي واحدة متواصلة و متماسكة، رغم تغيُّر أحوالها. و لما كنت منسجما مع نفسي، وأقبل ذلك رغم التغيرات الطارئة

[3] هيغل، العقل في التريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام،

عليها، فإنه حري بي أن أقبل الآخر، المماثل لي، وتحولاته. إنه مثلي يملك ذاتا أو إنِّية مستقلة عن إنيِّتي. إنه آخر بالنسبة لي، مثلما أنا "آخر" بالنسبة إليه.

لكن هذا الآخر، المنتمي مثلي إلى الجماعة، ربما قد يشترك معي في رسم صورة أعدُّها اليوم مثلى عن نمط العيش المشترك، أو يتبنى تلك التي كنت أعدُّها بالأمس مثالا، أو تلك التي أحلم بها للغد. و اشتراكه معي، إلى جانب آخرين، في تبني هذه الصورة يجعل كل واحد من المشتركين، إذا تحدث عن المجموع، استخدم ضمير" نحن". فقد صرت أنا وذاك الذي كان "آخر"، بالنسبة لي، ننتمي إلى نفس الذات أو "الأنا" الجماعية. فتتحول هذه الأنا الجماعية إلى "نحن". و هكذا تتشكل إنِّيةَ الجماعة و هُوِيَّتها. ويصبح كل واحد من المنتمين إليها ناطقا باسمها، مدافعا عنها، مثلما يفعل في الدفاع عن ذاته الفردية. فقد تداخلت في ذاته الفردية ذات الجماعة كاملة.

هذا الانتماء إلى الأنا الجماعية هو الذي يجعلني، مع مجموع الآخرين المشاركين لي في الآمال والانشغال بهموم المصير المشترك، نُشكِّل "نحن"، أي جماعة حضارية، أو أمة، فيشعر كل واحد منا بالمسؤولية عن نفسه و عن الآخرين.

أما المقصود بالآخرين، الذين هم "نحن" أيضا، فليس فقط أولئك الذين يعيشون معي الآن، بل أيضا أولئك الذين ماتوا، و قد كانوا جزءا منا، ساهموا بجهودهم وتضحياتهم في صناعة واقع الأمة على ما هي عليه. تقع علي وعلى الآخرين مسؤولية الحفاظ على منجزات الأسلاف الذين مضوا وذكراهم. وينتمي إلى الأمة كذلك أولئك الذين لم يولدوا بعد، الذين يقع على عاتقنا واجب ضمان مستقبل لهم، يفترض أن يكون زاهرا، أو في مستوى الجهد الذي نبذله، ونرغب أن يكون أفضل و أسمى.

فإذا كان الأجداد هم امتدادنا في الزمن الماضي، فإن الأبناء هم امتداد ذاته في الزمن المقبل. يدخل ضمن هذه "النحن" كل المنتمين إلى المسار التاريخي في الماضي و الحاضر و المستقبل.

هذا الشعور بالآخرين و بالاشتراك معه في الانتماء هو الوجه السيكولوجي للهوية.

مفهوم الهوية: Identité

الهوية هي مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين المنتمين إلى أمة أو شعب، كما تشمل الانتماء التاريخي المشترك و التطلعات المشتركة.

و الهوية هي "بنت الثقافة (كما يقول أحمد بن نعمان). أما الثقافة، بمعناها الواسع،" فهي جماع السمات الروحية و المادية و الفكرية و العاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون و الآداب و طرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان و نظم القيم و التقاليد و المعتقدات، و إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذلته و تجعل منا كائنات تتميز بالإنسانية." [4]

تضم الهوية بين جوانبها، ما سبق ذكره، من مكتسبات الجماعة و خبراتها في صلتها مع الطبيعة أو في التعامل بين أفرادها أو مع الجماعات الأخرى.

التحديد السلبي للهوية:

بعض الأمم قد تمر بحالة من عدم الوضوح بالنسبة لتحديد ملامح هويتها، فتحددها سلبيا " أي ما ليس هو". كشأن الطائفة اليهودية حين تضع المنتمين إليها في مواجهة " الأغيار" أو الغوييم [5].

يذكر هيرودوت أنه في فترة الحروب الميدية لم يكن الوعي "بمجتمعية" Communauté هللينية في مواجهة التهديد الفارسي و الخطر البربري واضحا و محددا، إلا في عنصر واحد هو اللغة: "البربري هو الذي لا يتكلم الإغريقية" [6]

الهـــــوية الثقافية:

[4] أحمد بن نعمان، ابن باديس و الهوية الوطنية.، بحوث و دراسات

ولفظ (غُوييم) جَمْع مُفْرده (غُوي)، استعمل أصلاً في اللغات الساميَّة –ومنها العبرية– للدِّلالة على الحيوانات المتجمّعة في قطيع، أو الطيور والحشرات والهوامّ التي تتحرك في أسراب . [5]

. [6] جان توشلر ، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية،بيروت،1983. ص 42

هي مجموعة من التراكمات المعرفية سواء كانت انطلاقا من الدين أو العادات والتقاليد التي عاشها الإنسان منذ ولادته وتربى عليها وكانت شيئا أساسيا في تكوينه، بحيث أصبحت جزءا من شخصيته وطبيعته. و هي المركب المتجانس من الذكريات والتصورات والقيم والرموز والتعبيرات والإبداعات والتطلعات التي تحتفظ بها جماعة بشرية ما، تشكل أمة أو ما في معناها، بهويتها الحضارية.

الهوية بين الثبات و الصيرورة:

ما دام التاريخ والإنسان في حركة وتغير دائمين، وفق ما يراه محققا لكماله، مع احتفاظه بكينونته و شخصيته، كذلك يمكن النظر إلى الهوية، فهي ليست أقنوما ثابتا منجزا جاهزا بصورة نهائية ، بل هي مشروع متطور فاعل مفتوح على المستقبل. وليست مغلقة على ذاتها مكتفية بذاتها، و إنما هي ذات طابع علائقي متفاعلة و فاعلة في غيرها.

المراجع العربية و المترجمة:

- كرستين نصّار (1991 (الإنسان والتاريخ ، أثر التاريخ وتأثيره بسيكولوجية الفرد) .طرابلس: جروس برس.
- جان توشار ، (تاريخ الفكر السياسي)، ترجمة علي مقلد ، الدار العالمية، بيروت، 1983.
- جان جاك روسو ، (أصل التفاوت بين الناس)، ترجمة بولس غانم ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت ، 1972
- مالك بن نبي، (ميلاد مجتمع)، دار الفكر، دمشق، ط/2، 1974
- هيغل، العقل في التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام،

bibliographie

- V. Descombes. Les embarras de l'identité, gallimard 2013
- F. Drapeau Contim. Qu'est ce que l'identité ? Vrin 2010.
- G. Burdeau. Traité de science Politique.L.g.d.j. Paris1980
- J.J. Chevalier, Histoire de la pensée Politique, payot ،Paris, 1979.
- Aron, Raymond : Introduction à la Philosophie de l'histoire, Gallimard , 1981,

نتائج البحث

أن ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات هي قدرته على الفعل التاريخي المغير لنمط حياته و حياة الجماعة التي ينتمي إليها، سواء كانت محدودة كالأسرة، والقبيلة، والمدينة، أو شاملة كالأمة، أو الإنسانية.

إن التاريخ الإنساني ليس شيئا آخر سوى سلسلة متكونة من التفكير والعمل:
تفكير في سلبيات واقع راهن، وفي كيفية تجاوزها، و عمل على تحقيق الصورة الجديدة، في أرض الواقع، لعالم نتصوره لحظة العمل على تحقيقه، مجسدا للمثل، أو للكمال، وخاليا من نقائص العالم الراهن. لكننا لا نلبث أن نتجاوزه إلى صورة جديدة لعالم تبدو لنا بدورها أكثر اتساقا و كمالا.

أن تاريخ الإنسان هو، من جهة، مسار فعله في الطبيعة، من خلال علاقة العمل، و مسار تفاعله مع أقرانه من بني البشر، من خلال علاقة التعامل، من أجل ضمان بقائه و بقائهم بأوفر الخيرات، و أقل الجهود و التضحيات.
التاريخ من جهة أخرى هو رواية هذا المسار، يتناقله الأحفاد، من أجل معرفة الأحداث وصناعها، ولمعرفة ذواتهم، من جهة امتداداتهم الماضية، و ليعرفوا موقعهم و الكيفية التي آلوا إليه.
فالتاريخ يحمل وجهين: وجه عملي حدثي (يتعلق بما أحدثه الإنسان من التغيير)، ووجه نظري معرفي.

وهكذا يتجلى الإنسان ليس كماهية و إنما كصيرورة. ليس كشيء منجز سلفا، و إنما ككائن يسعى إلى إكمال ذاته بذاته. وهو يفعل ذلك من خلال العمل على منح عالمه صفة الكمال قدر الطاقة الإنسانية النسبية والموصوفة **بالتدرج و التطور**.

لهذا يبدو حضور الآخر في البعد التاريخي للإنسان ضروريا من خلال تراكمية المعارف والمكتسبات المتوارثة جيلا بعد جيل و كذلك في الأثر الاجتماعي لأفعال الإنسان.

هذا الانتماء إلى الأنا الجماعية هو الذي يجعلني، مع مجموع الآخرين المشاركين لي في الآمال والانشغال بهموم المصير المشترك، نُشكِّل "نحن"، أي جماعة حضارية، أو أمة، فيشعر كل واحد منا بالمسؤولية عن نفسه و عن الآخرين.

و من خلال الثقافة تتحدد هوية الجماعة.

الهوامش:

[1] - يعرف أندري لالاند الأمة nation بوصفها مجموعة الأفراد الذين يشكلون جسما اجتماعيا . و ترادف الأمة عنده الجنسية. موسوعة لالاند الفلسفية، ص 853 .

2-. (Héraclite) هيراقليطس، فيلسوف يوناني . تقوم فلسفته على مبدأ التغير. ولد في افيسوس Éphèse حوالي 451 ق م، و توفي بها حوالي 480 ق م .

3-هيراقليطس، الشذرات ، رقم 113111

4- يقول كارل بوبر في تصدير كتابه"عقم المذهب التاريخي"، ترجمة عبد الحميد صبرة ، دار المعارف ، القاهرة، 1959، ص5

1 - يتأثر التاريخ الإنساني في سيره تأثرا قويا بنمو المعرفة الإنسانية.

2 - لا يمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية.

3 - و إذن فلا يمكننا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني.

5- Marx, Le capital. (c'est comme si la nature avait voulu que **l'homme** travaille, elle a fait exprès de n'être pas immédiatement adaptée à nos besoins, comme ça, on **s'humanise**, on " devient ce qu'on est ")

[6]- جان جاك روسو ، أصل التفاوت بين الناس ، ترجمة بولس غانم ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت ، 1972، ص 42.

7- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الإنشاء، طرابلس لبنان، ط2 ، 1974 ص 15

8- Aron ,Raymond : Introduction à la Philosophie de l'histoire, Gallimard , 1981, p.43 .

9 Ibid , p 43.

10 Bachelard . Gaston**, l'intuition de l'instant, p 56**

11 [1] Valery . Paul , Variétés, p.p.134-135.